حين قررتُ أن أكون معلّماً

حامد حج محمد

مدرّسان اثنان قلبا كل كياناتي، جعلا كل أحلامي تتمحور حول مهنة التدريس، فقررتُ أن تكون مهنتي في المستقبل. عشت كل التفاصيل الدقيقة في حياتي وأنا أتجه واثق الخطى نحو هذه المهنة، عقلي الباطن كان مبرمجاً هو الآخر على هذا المسار، منذ سنوات المرحلة الأساسية في مدرستي الجميلة في قريتي الصغيرة تلفيت، كنت أؤكد لنفسي يومياً، أن التعليم سيكون مهنتي، تخليت نفسي معلماً يتجول في فصله، ويعطي هذه الحصة أو تلك، لم أحدد حينها إن كانت حصة للغة العربية أو الرياضيات أو التاريخ، كلّ ما كنت متأكداً منه أنني أنا معلم هذه الحصة . . . .

معلم التاريخ كان عملاقاً في داخلي، كانت حصته قصيرة جداً، على الرغم من أن كل الحصص كانت متساوية في مددها، لكنني كثيراً ما فكرت عند اقتراب حصته أن أطلب من مدير المدرسة الانتباه لطول هذه الحصة كي تتساوى مع بقية الحصص، تشكلت في داخلي فوبيا قصر حصة التاريخ، ربما لأنني عشقتها وتمنيت أن تطول، ربما أردتها أطول من روايات (ليف تولستوي) الطويلة! تبدأ الحصة ويبدأ المعلم بإعطائنا المنهاج المقرر بطريقة القص، تنتهي الحصة ويدق الجرس مثل انتهاء حلقة من مسلسل نعشق كل لحظاته وبطولاته الخرافية التي لا تنتهي، وتتوالى السنون وهذا المعلم يمنحنا دروساً في التاريخ عشقناها، المنهاج نعيه –كطلاب– بكل تفاصيله الدقيقة من خلال قصص حقيقية تحكي المنهاج بطريقتها السردية المثيرة، معلم قررت أن أقلّده في كل مناحي حياتي، ذلك المعلم السارد . . . .

معلم آخر سكن وجداني، والدي، قدّر لي أن يكون والدي معلماً في مدرستي، وكان كما معلم التاريخ، ممن سكنوا أعماقي سكوناً يأبى الرحيل، كان يدرّسنا مادة (التربية المهنية) التي لا أعلم أين صار هذه المبحث الآن، ولماذا ألغيت أو نُقلت أو تحورت هذه المادة؟! كان معلمي (والدي) يمزج لنا بين النظريّ والعمليّ، كأنه أراد أن يعلّمنا أن القول يصحبه العمل، وأن النظريات تتطلب التجارب، كنت أتشوق لهذه الحصة التي أتشوّق فيها للعمل أكثر من التعليم. أذكر أننا زرعنا الكثير من المحاصيل، وتعلّمنا صناعة الحلويات وطهي الطعام،

وغسيل الملابس، كنا نتعلم كيف نكون عمليين أكثر، وكيف ننجز أعمالنا بأيدينا، علّمنا أن العمل عبادة، ونفذنا دروس معلم التاريخ وقصصه بشكلٍ عمليّ، ربما كان يعلم والدي المعلم أنني سأكون مدرّساً يوماً ما، تعرفت من خلاله على كيفية التحضير الحقيقي للحصة -ليس معياراً ذلك التحضير الكتابي مطلقاً- تابع معي الدروس النظرية ومدى استفادتي من تطبيقاتها العمليّة، ربما ما هيأني لما أصبحت عليه، وجعل قراري أن أكون معلماً في يوم ما بأنه تحصيل حاصل... .

لا أقول إن فترة دراستي في المدرسة كانت إيجابية وممتعة دائماً، كانت هناك العديد من العوائق التي جعلت هذين المعلمين يعينانني على تجاوزها بشكل غير مباشر، في فترات معينة جاء معلمون جدد منحوني الطاقة اللازمة للاستمرار كما منحها لي والدي ومعلم التاريخ، ولكن هؤلاء المعلمين كانوا يغادرون مبكراً، كانت أساليبهم في التدريس تأخذك إلى رحلات ممتعة، تساقط عليّ أمطاراً ربيعية منعشة، عشقتهم وذهبوا، ولم يتبق إلا هذان البطلان طوال مدة دراستي الباقية، هذا ما اكتشفته حول علاقة المعلم بطلبته، ومدى حبهم له وأسلوبه معهم، وتأثير كل ذلك على عشقهم للمبحث الذي يقوم بتدريسهم إياه.

من الذكريات الجميلة التي قمت بتنفيذها مع زملائي الطلبة، فكرة عمل مسابقة ثقافية على مستوى المدرسة، اختارني معلم اللغة العربية وثلاثة زملاء من زملائي لنقوم بإجراء المسابقة، جلسنا ورسمنا معالم المسابقة وطريقة إجرائها، اخترنا أن تكون مسابقة في كتابة القصة القصيرة، حذرنا المعلم من خطورة فشل المسابقة، طلب منا أن نقرأ القصص، ونستعد لاستلام قصص الطلبة لاختيار الأفضل منها، شجعنا على تحمل مسؤوليات المتابعة والنقد، كان معلماً مثيراً، منحنا الفرصة لنكون نحن، ونفذنا المسابقة، واستلمنا مئات القصص والمشاركات، وجلسنا لنقدها، صرنا قراءً ونقّاداً، منحنا المعلم فرصتنا لنثبت لأنفسنا أننا قادرون على أن نكون، وسنكون، وأتمت اللجنة عملها وأعلنت نتائج المسابقة بعد أيام عدة من القراءة والتقييم، تم منحنا الفرصة لنقرر، وقررنا، وأثبتنا قدراتنا، وخضنا أول تجربة حقيقية في العمل، منحنا إياها المعلم الذي أدرك مسبّقاً أنه يجب منح الطلبة فرصة الإبداع والابتكار. ما أتذكره الآن عن تلك المسابقة، أن أحد طلاب اللجنة كان أقل مستوى من بقية أفراد لجنة المسابقة، ولكنه، وبإصرار، ظل يقرأ ويطالع حتى عرف فن القصة، وصار خلال الأسابيع الثلاثة -فترة المسابقة- مثقفاً عالماً بشؤون القصة القصيرة ونقدها، لا أدري كيف؟ ولكنني لمحته في فترة استراحة أحد الأيام الدراسية في ذلك الوقت يقرأ مجموعة قصصية بعنوان «وتستمر الحياة» للكاتب يعقوب الأطرش، أثبت نفسه ذلك الطالب لأنه امتلك العزيمة والإصرار، وقبل ذلك الفرصة اللازمة لإثبات ذلك.

أنهيت دراستي الثانوية العام 2003، وليس غريباً أن تكون علامة التاريخ هي أعلى العلامات التي حصّلتها في التوجيهي، لكنني استغربت وتفاجأت أن علامة الرياضيات كانت مساوية لعلامة التاريخ، على الرغم من أن حصة الرياضيات كانت طويلة ومؤلمة ومقيتة! على الرغم من معلمها الطيّب، لم أكن أحب تلك المادة، وكنت أرى حصصها طويلة جداً، كأنني أسير لعدو لا يرحم، كأنني أسير في صحراء غير منتهية في جو لاهب على رمال حارّة، لست أبالغ في كرهي لتلك المادة وحصصها الطويلة، لكنني تفوقت فيها، هذا ما حيرّني كثيراً، ربما لا يكفي عشق المعلم وأسلوبه الممتع لتحصيل أعلى العلامات في مادته التي يدرّسها ...! ولستُ أدري لماذا؟! وربما جمود تلك المادة لا يسمح لمعلم الرياضيات الطيّب أن ينقلنا إلى جو من السرد والقص، لمادة ليس فيها إلا الأرقام والقوانين، ما يهمني الآن أن علامة أفضل مادة لديّ وأبغضها كذلك كانت أعلى العلامات، وهذا تناقض لم أفهمه فعلاً!!

مرت السنون وتم تعييني معلماً في قرية قبلان المجاورة لبلدتي، وعند إعطاء أول حصة في مدرستي الجديدة، اكتشفت أن كل النظريات التي كنت قد أعددتها لهذا اليوم لا تساوي شيئاً، نظرية حديثة ولدت في تلك الحصة، نظريتي الخاصة وأسلوبي الخاص، في داخلي كان معلم التاريخ القديم ووالدي المعلم، أحسستُ أنني أنهل من ينبوعهما الصافي وأسقي طلبتي، لم أعد أحتاج لدراسة نظريات جامدة لتطبيقها، كان هذان المعلمان يسكنان في داخلي، وكان عقلي يستعين بهما ويخرج المعلومات بطريقته الخاصة، لا داعي أيضاً لتطبيق المنهاج بحذافيره المقيتة في تلك الحصة، سيفقدك حينئذ أسلوبك وكيانك، وتصبح كآلة أو جهاز عرض في نقل المعلومات الموجودة بحذافيرها، كنت أمزج في حصصي بين حكايات معلم التاريخ ومعلومات المنهاج، ناهيك عن تطورات الحياة وما يمكنك أن تستعين بالأمثلة التدعيمية المتحضرّة من واقع الحياة لترسيخ المفاهيم وتعليمها بطرقٍ جديدة.

أشياء أخرى أفادتني، أبطال جدد زرعوا في داخلي حب التدريس وفكرة تطويرها، مشرف اللغة العربية زارني في حصة للضمائر المنفصلة في قرية جوريش وفاجأني، عند انتهائي من الحصة وجدته قد شكرني على استخدام طريقة لعب الأدوار في تدريس هذه الضمائر، وأخبرني أن معظم المعلمين يستخدمون الطريقة التلقينية الجامدة، ليس لأنهم لا يعرفونها، بل ربما بسبب تراكمات الحياة وعدم صفاء المعلم الذهني للإبداع، وجلست معه مطولاً لأجد بحراً من المعلومات وطرق التدريس تحتاج لاستثمارها في دورات التربية والتعليم المختلفة بدلاً من بعض الدورات التلقينية غير المجدّية، وحثني على القراءة، طلب مني أن أكون (طاحون) قراءة في مختلف العلوم والآداب، قال لي أيضاً أنه تلقّى هذه النصيحة وعمل بها قبل سنوات طويلة من المشرف السابق، وآتت أكلها، نصحني ونفذتُ نصيحته فوراً ... .

بطل آخر دخل عالمي، مشرف التربية الإسلامية الراحل أعادني سنوات إلى الوراء حين زارني في جوريش أيضاً، حيث درّست التربية الإسلامية إلى جانب اللغة العربية، أعادني إلى توجيهات الدكتور الذي أشرف على مقرر التربية العملية قبيل تخرجي من الجامعة، حضر هذا المشرف الحصة، وكانت عبارته الأولى عند جلوسي معه فور انتهاء الحصة:

» أنا تعلمت الكثير من هذه الحصة.

سألته عن سبب ذلك مستغرباً متعجباً، كيف لمشرف حضر ليقيّم لي حصة أن يتعلم من الحصة نفسها التي جاء ليقيّمها، أبهرني ردّه الذي جعلته سبباً آخر من أسباب نجاحي، قالي لي:

» كلنا يجب أن نتعلم من بعضنا، لا يوجد شخص معلم فقط يجلس في برجه العاجيّ ويعطي الأوامر والنصائح والتقييمات، أنا أتعلم منك، أنت تتعلم مني وتستمع إلى توجيهاتي، أنت تعلّم الطلبة وربما تتعلم منهم، نحن نتعلم من أفراد المجتمع المحليّ، من الحكايات الحياتية وتفاصيلها الدقيقة، كلنا نعلّم ونتعلم من كلنا، وسنبقى كذلك حتى نغادر هذه الحياة.

تلك النصائح الإشرافية، ومعلمايّ القديمان، وتجاربي في مدارسي المتعددة، ونظرياتي الخاصة التي تكونت حول التعليم، ناهيك عن المشروع الذي جعلني أرى عالم التربية والتعليم كقطعة النور التي تشع في وعينيّ بعد ظلام طويل معلنة نهاية النفق– كل ذلك هو ما شكل المشروع الذي أعاد صياغة نظرياتي في التعليم؛ مشروع

مركز القطان للبحث والتطوير التربوي المعنون بـ (بلدات وحكايات)، خضته مع المركز بمجموعة من طلبتي من مدرستي تلفيت، مدرستي التي كان فيها والدي ومعلم التاريخ قديماً، مدرستي التي اشتقت إليها بعد إنهاء المرحلة الثانوية، وعدت إليها معلماً أخيراً، عدت لأعطي الحصص في أمكنتي التي تُنسى، تلك الأمكنة التي زُرعت فيها كل الذكريات مع كل من كنت معهم، وكل من علموني بوح الحروف وجماليّات الفكرة والرسالة.

كان المشروع مميزاً، كتبنا قصة قريتنا وحكاياتها، رسمنا واستمعنا وسجلّنا، كنت والطلبة نعمل معاً، كلنا أعضاء معاً في مشروع، أنا وإياهم كنا طلبة ومعلمين وباحثين ومصورين وفنانين ورسّامين ... لنقدم مشروعنا الخاص (حكايات تلفيت)، إنتاجنا الخاص المتكامل، ونظريتي الخاصة الجديدة التي جعلت من الممارسة والعمل مدخلاً لخلق واستخراج الإبداع والمكنون في داخل طلبتي.

وهكذا وصلت لخلاصة التجربة حول كل ما جرى في حياتي تربوياً، الإبداع ليس له مكان وزمان معين، كما أنه غير مرتبط بمنهاج معين أو خطة معينة، الإبداع فكرة قابلة للترجمة، وعلينا أن نحسن ترجمتها لتظهر بأبهى صورة، نحن جميعا نتعلم، نحاول استخراج أجمل ما فينا بأجمل الطرق والأساليب، مركز القطان عرف كيف يستخرج الجميل من طلبتي، وعرف كيف يعطي المعلم دروساً في ذلك، نجح وأبهرني، كما أبهر كل من عمل معه، ما أتمناه فعلاً هو أن نحاول الابتكار، أن نعبرّ عما يجيش في داخلنا خارج نطاق التقليد، أن نحاول تعليم أنفسنا والآخرين باستخدام الطرق الممتعة، أن نشارك معاً، أن نتعلم من الجميع ونحاول أن نؤثر في الجميع، هذا ما أتمنى أن تنتهجه وزارة التربية والتعليم العالي، وأن نعمل به نحن حتى يتسنى للوزارة تطبيقه كمعلمين ومؤسسات تربوية ومراكز تربوية.

نجاحي وبعض زملائي الطلبة قديماً في تنظيم مسابقة القصة القصيرة، لم يكن ليتأتّى لولا التجربة والممارسة، ولولا الفرصة الممنوحة لنا آنذاك، التي خلقت لنا طريق النجاح، كما الفرص الممنوحة لنا في ممارسة التربية المهنية، قد جعلتنا نتعلم أن الفعل يصاحب القول، وأن خوض التجارب العملية هو معيار الإنجاز الحقيقي. وإبداعي في مادة التاريخ ما كان ليحصل لولا الأسلوب الشيق في التدريس الذي تلقيته من معلم التاريخ، وتفوقي في مادة الرياضيات، على الرغم من جمودها، كان نتيجة صبر وتحمل لمشقة الحصة الطويلة. تعاليم المشرفين التربويين حول القراءة والمطالعة، وحول أن أتعلم من كل شيء وأي شخص، كانت تعاليم غيرت من أسلوبي ونظرتي إلى الحياة. نظريتي التربوية الخاصة التي جاءت نتيجة تراكمية لكل الأحداث التربوية في حياتي، والمعلومات اللاحقة عن الإدارة والتربية والعمل التربوي، خلقتا مني معلماً يوازن بين المطلوب والمحقق. حتى بعض السلبيات التي مرت بها مراحلي السابقة، كانت دروساً حقيقية أحاول أن أتجنب إيقاع طلبتي فيها. أما مشروع (حكايات تلفيت)، فكان خاتمة التجارب في حياتي التربوية حتى اللحظة التي كتبت فيها هذا المقال، مشروع التجربة والعمل، مشروع ترجم كل مراحلي وحقق لي الطموح المطلوب بإشراك طلبتي في عمل مبدع مبتكر، منحت طلبتي فرصة كنت قد حصلت عليها قديماً في مسابقة القصة القصيرة في مدرستي، منحتهم فرصة الإبداع وأبدعوا، أبدعنا معاً بفضل الله ومركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وسنواصل الإبداع معهم ومع كل المؤسسات والأحداث، في كل زمان ومكان، مع كل العناصر والمكونات المختلفة لواقعنا التربوي الذي يحتاج إلى النهوض والابتكار والتطوير.

مدرسة تلفيت الثانوية